

التحرير والتنوير

وجيء بالمسند إليه معرفا بالإضافة لإطالته ليحصل بتطويله ثم تعقيبه بالجملة المعترضة التشويق إلى معرفة الخبر وهو قوله (من رب العالمين) ولولا ذلك لقليل : قرآن منزل من رب العالمين أو نحو ذلك .

وإنما عدل عن أسلوب قوله (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) في سورة البقرة لأن تلك السورة نازلة بين ظهرا نبي المسلمين ومن يرجى إسلامهم من أهل الكتاب وهم (الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) ؛ وأما هذه السورة فقد جابهها بها المشركين الذين لا يؤمنون بالإله الواحد ولا يوقنون بالآخرة فهم أصلب عودا وأشد كفرا وصدودا .
فقوله (تنزيل الكتاب) مبتدأ وقوله (لا ريب فيه) جملة هي صفة للكتاب أو حال أو هي معترضة .

وقوله (من رب العالمين) خبر عن المبتدأ " ومن " ابتدائية .
والمعنى : من عنده ووجهه كما تقول : جاءني كتاب من فلان . ووقعت جملة (لا ريب فيه) بأسلوب المعلوم المقرر فلم تجعل خبرا ثانيا عن المبتدأ لزيادة التشويق إلى الخبر ليقرر كونه من رب العالمين .

ومعنى (لا ريب فيه) أنه ليس أهلا لأن يرتاب أحد في تنزيله من رب العالمين لما حف بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلا عن مجموعته وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاتسقامة ومجئ مثله من مثله مع ما هو معلوم من وصف الأمية .

الريب يثير ما على يشتمل لا أنه الكتاب هذا في مطروفا الريب يكون أن نفي فمعنى A E فالذين ارتابوا بل كذبوا أن يكون من عند الله فهم لا يعدون أن يكونوا متعنتين على علم أو جهالا يقولون قبل أن يتأملوا وينتظروا والأولون زعماءهم والأخرون دهماؤهم وقد تقدم ذلك في أول سورة البقرة .

واستحضر الجلالة بطريق الإضافة بوصف (رب العالمين) دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزلا للناس كلهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية كما قال تعالى (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه) . وفيه إيماء إلى أن من جملة دواعي تكذيبهم به أنه كيف خص الله برسالاته بشرا منهم حسدا من عند أنفسهم لأن ربوبية الله للعالمين تنبئ عن أنه لا يسأل عما يفعل وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته .

(أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتندر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون [3]) جاءت (أم) للإضراب عن الكلام السابق إضراب انتقال وهي (أم) المنقطعة التي بمعنى (بل) التي للإضراب .

وحيثما وقعت (أم) فهي مؤذنة باستفهام بالهمزة بعدها الملتزم حذفها بعد (أم) . والاستفهام المقدر بعدها هنا تعجيبى لأنهم قالوا هذا القول الشنيع وعلمه الناس عنهم فلا جرم كانوا أحقاء بالتعجب من حالهم ومقالهم لأنهم أبدوا به أمرا غريبا يقضي منه العجب لدى العقلاء وذوي الأحلام الراجحة والنفوس المنصفة إذ دلائل انتفاء الريب عن كونه من رب العالمين واضحة بله الجزم بأنه مفترى على الله تعالى . وصيغ الخبر عن قولهم العجيب بصيغة المضارع لاستحضار حالة ذلك القول تحقيقا للتعجب منه حتى لا تغفل عن حال قولهم أذهان السامعين كلفظ (تقول) في بيت هذلول العنبري من شعراء الحماسة : .

تقول وصكت صدرها بيمينها ... أبعلي هذا بالرحى المتقاعس وفي المضارع مع ذلك إيدان بتجدد مقالاتهم هذه وأنهم لا يقلعون عنها على الرغم مما جاءهم من البيئات ورغم افتضاحهم بالعجز عن معارضته .

والضمير المرفوع في (افتراه) عائد إلى النبي A لأنه معلوم من مقام حكاية مقالهم المشتهر بين الناس والضمير المنصوب عائد إلى (الكتاب) . وأضرب على قولهم (افتراه) إضراب إبطال ب (بل هو الحق من ربك) لإثبات أن القرآن حق ومعنى الحق : الصدق أي فيما اشتمل عليه الذي منه أنه منزل من الله تعالى . وتعريف (الحق) تعريف الجنس المفيد تحقيق الجنسية فيه .

أي هو حق ذلك الحق المعروفة ماهيته من بين الأجناس والمفارق لجنس الباطل . وفي تعريف المسند بلام الجنس ذريعة إلى اعتبار كمال هذا الجنس في المسند إليه وهو معنى القصر الادعائي للمبالغة نحو : أنت الحبيب وعمرو الفارس